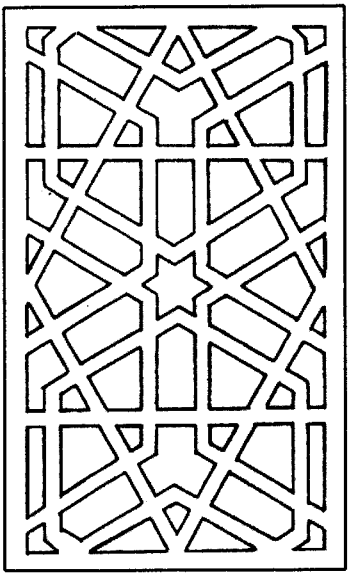

الزمرة الثالثة

منهجية البحث العلمي في الإسلام

- أهمية المنهجية في البحث
- تقويم العلوم (تصنيفها)
- أوعية العلم (ترتيب الكتب)
- أصول التفكير (أصول الدلالة)
- أصول الثبوت (علم أصول الحديث)
- علم آداب البحث (تمهيد)
- التعريفات
- التقسيمات
- الحكم على التصورات
- تدوين العلم والعناية بالمخطوطات ونشرها

٢٧ أهمية المنهجية في البحث

إن الحديث عن منهجية البحث العلمي الإسلامي ليس مقتضاه أن ينحصر في نتاج العلماء المسلمين وحدهم، ذلك أن البحث مهمة إنسانية لم تنقطع منذ وجود البشر على هذه الأرض، ولهذا فإن الباحثين المسلمين حينما سلكوا طرائق نسبت إليهم وعنوا بها لم يكونوا محتكرين لها، كما لم يكونوا متنكرين لجهود الإنسانية السابقة، بل إنهم أخذوا النافع والطيب وزادوه طيبا، ونقحوا وهذبوا حتى صارت لهم مناهج خاصة متداولة بينهم، عرفوا بها، وعرفت بهم، ومع هذا فقد ظل الشعار المرفوع دائما أن البحث والفكر والمنهجية والعلم كلها ألوان وضروب من الحكمة، والحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها، فالباحث المسلم لا ينظر إلى العلم منسوبا إلى بلد أو دين أو شعب، وإنما يستفيد من العلم أي علم، لأنه يعتبره الضالة المنشودة التي ما فتئ يبحث عنها .

والمقصود بالبحث ليس لونا معينا من ألوان البحث، كما أن المقصود بالعلم ليس علما معينا، وإنما المقصود جميع العلوم وجميع طرائق البحث التي يحتاج إليها الإنسان، ولذا نلحظ أن المنهجية التي أرساها المسلمون لم تخدم علما واحدا من العلوم، وإنما خدمت العلم من حيث هو، ومن هنا كان محتوى هذه المناهج ذا طابعين : ففيها ما هو أسس عامة شاملة، وفيها ما هو أسس خاصة بعلم من العلوم كما سنرى .

هـــذا، وإن كـــل جهـــد يبذل في منهجة البحث، وكل وقت يصرف في تقعـــيد طرق التفكير وأصول التأليف ووسائل العرض - مهما كبر ذلك الجهـــد أو الوقـــت - ليس ضائعا، بل هو جهد موفور وهو يحفظ جهودا أخـــرى ستكرر وقتا سيضيع لو لم يجد الإنسان أمامه أصولا منهجية يستفيد مـــنها في بحثه وفي تعلمه وفي تعليمه. لأن هذا التقعيد، أو تلك المنهجية، إنما هـــي تعبيد لسبل البحث الوعرة المجهولة. فإن قال قائل : إنني أخوض غمار البحـــث الـــذي أريـــده مباشرة وأوفر الوقت المبذول في مراعاة ما تقضي بـــه المنهجية .. يقال له: لو مشيت هكذا فأنت كمن يسلك طريقا مجهولا لا يصـــحبك فـــيه دليل، وليس معك رفيق مجرب، وإن من الإلقاء باليد إلى التهلكة أن يسلك الإنسان مفازة ليس معه فيها دليل ماهر .. والمنهجية هي الدليل الذي يأخذ بيد الباحث ليصل إلى نتائج سليمة من بحثه وليقطف ثمار العلوم والمعرفة التي يطلبها .

والجدير بالذكر أن منهجية البحث تتضمن زمرتين من القواعد والأسس التي عول عليها المسلمون :

إحدى الزمرتين تتناول الأساسيات التي تجعل البحث صحيحا مفيدا .

والزمـــرة الأخرى تتناول الأخلاقيات والآداب التي تجعل ذلك البحث نافعـــا خيرا، ولا تعرض العقل الإنساني لاستخدام ما آتاه الله من موهبة في الشر والإفساد ..

ولا غنى عن هـــذا الجانب الأخير - جانب الأخلاقيات - ولا مغبة له، ذلـــك أنه لا يغير من حقائق العلم شيئا وإنما يختار من تلك الحقائق ما يعلنه ويقوـــله لكافة الناس، ويدع ما سواه في متناول الخاصة القادرين على فهمه

وتمييز الخبيث من الطيب، والغث من الثمين، والله عز وجل يقول : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [1] . يفكر الإنسان كما يشاء ، ويبحث كما يحلو له، ولكنه يخرج من نتاج بحثه ما ينتفع به الآخرون، ويخزن منه عن الأشرار ما يمكن أن يستغلوه للإفساد والتخريب، وليس هذا الاختزان إماتة لنتائج بحثه أو بعضها وإنما هو وضع للشيء في موضعه .

(١) سورة البقرة / ٨٣ .

٢٧ تقويم العلوم

أول مـــا عني به الباحثون المسلمون من منهجة بحوثهم أنهم نظروا إلى العـــلم الذي يشتغلون فيه، فالكلام عن منهج للبحث العلمي يتطلب توجيه الأنظار إلى العلم، ما هو العلم؟ بل ما هي العلوم ؟ وما الحواجز وما الفواصل بين علم وآخر ؟

هذا اللون من ألوان المنهجية أطلق عليه عند العرب اسم (تقويم العلوم) أي : تصـــور العلـــوم عـــلى ما هي عليه، وتمييز علم عن آخر، حذرا من الـــتداخل، وضمانا لعدم الخلط بينها، الأمر الذي وقع فيه كثير من الباحثين القدامـــى، و لم يسلم منه نفر من الباحثين في صدر الإسلام، فكان لزاما على الباحثين المسلمين أن يأخذوا التجارب والنواة التي وصل إليها أولئك القدامى من مفكري اليونان وغيرهم في تقويم العلوم وتصنيفها وتمييز حقائقها بعضها عـــن بعـــض، ويضيفوا ما اعتادوا إضافته من صقل وتمحيص حتى نتج عن جهودهم هذه عدة محاولات ومشاريع لرسم مخطط هيكلي شامل للعلوم .

فقد كان تقسيم العلوم قبلهم ينحو منحى التمييز بين كل من (الإلهيات) و(العقليات) و (النظريات) و (المهارات) فضلا عن العلوم (اللسانية) الـــتي تـــنفرد بهـــا كل أمة عن الأمم الأخرى، وهي أصول الكتابة والقراءة والخطابة والشعر، وما يتصل بذلك ..

وأول من عني بهذا التقويم للعلم (أفلاطون) ثم تلاه (أرسطو) ثم جاء بعده (المدرسيون) أو (الإسكولائيون) ، وبعدئذٍ جاء (توما الأكويني) وآخرون بامتداد الثقافة الغربية التي أخذت في البداية من الثقافة الإسلامية، ونهلت منها ما فتح عيونها على العلم قديمه وحديثه، ثم واصلت هي مسيرة الركب في فترة أخلد فيها المسلمون إلى الركون والجمود..

أما الذين عنوا بهذا من الباحثين المسلمين فإننا نجد على رأسهم (الكندي) الذي أخذ ما كتبه أفلاطون وأرسطو وهذبه بإدخال تعديلات جذرية لتخليص هذه العلوم من التداخل الذي كان قائما بينها، ولإحلال العلوم اللسانية العربية محل العلوم المشابهة التي كان يعنى بها اليونانيون، والعرب أمة معروفة بالبيان ولديهم من ذلك ثروة هائلة وإن كانت هذه الثروة متداخلة تحت اسم (الأدب) أو (اللغة) فجاء الكندي وشقق هذه العلوم وأبرزها مستعينا بالدراسات الأولى لعلماء العربية الذين ميزوا بين النحو، والصرف، والبلاغة بفروعها الثلاثة من المعاني والبيان والبديع، وما تلا ذلك من علوم اللسان العربي المعروفة.

وثمة عنصر آخر أدخله الكندي على تقويم العلوم وتصورها، وهو أنه أعاد النظر في علوم الإلهيات، وعلوم الإلهيات لدى الأمم والشعوب قبل الإسلام كانت تبدأ من الأسفل إلى الأعلى - إذا صح هذا التعبير - لأنها تجعل الإنسان يرسم بالتخيل تلك الحقائق المتصلة بالألوهية، فيفكر كل إنسان في ظروف بيئته وموروثاته ثم يحكم على الإله كما يتصور. وهذه طريقة خاطئة كل الخطأ، لأنه بعد أن يعترف الإنسان أن هناك إلها، ويقر بأنه عبد لذلك الإله ليس له ولا في مقدوره أن يدرك كنه الألوهية.

فما كان من الكندي إلا أن أعاد الحق إلى نصابه، والأمر إلى صوابه، وقرر ما جاء به دين الإسلام من أن الإلهيات تستمد من الوحي، أي من

أعـــلى إلى أسفل، عن طريق الرسل فلا نصف الإله إلا بما وصف به نفسه، ولا ندخل في صعيد الإلهيات إلا ما جاء عن طريق الوحي من الله إلى رسله، باعتـــبار تلك الأمور من القضايا السمعية (الغيبية) التي لا تخضع إلى طرق البحـــث العامـــة بل لها طرق أخرى خاصة للقطع بثبوتها، ولقد كان هذا التصـــحيح موضع تسليم ومتابعة من كل من تلا الكندي من العلماء المعنيين بتقويم العلوم .

وبعـــد الكـــندي جاء الفارابي في كتابه (إحصاء العلوم) وكان أجود تنظيما من سابقه.

بعـــد الفارابي جاء الخوارزمي المعروف فكتب في ذلك كتابه (مفاتيح العلوم)، وهو حلقة أخرى في تأصيل عملية التقويم، وكتابه مطبوع متداول، ومما عني به المستشرقون .

هذا التتابع في الجودة هو من طبيعة الأمور الجديدة التي تمر بمرحلة الريادة والتأســـيس ثم تـــبلغ مـــرحلة التثبيت والتنظيم، ولذلك قال القدامى مقولة صارت مثلا علميا نصه : " أثبت العرش ثم انقش " أي أقم هيكل البناء أولا ثم حسن وجوّد فيه ما استطعت .

إن هذه الجهود التقويمية - وإن كان موقعها خارج العلوم - هي نافذة يطـــل منها الإنسان على المعرفة، وهي جهود مهمة جدا، ولذا كانت هذه الكـــتابات عاصما من الخطأ والزلل في أعمال الباحثين المسلمين فلم يخلطوا بين علم وآخر، و لم يحملوا حقائق فن على حقائق فن آخر .

وقـــد يقـــول قائل : لا مجال لهذا الخلط أو الإدماج، فكل علم له كتبه ومقولاته .. وهذا إن صح في جانب من نتاج الثقافة فليس منضبطا في جميع مظاهـــرها، لأن الكتـــب (أوعية العلم) كانت مليئة بالاستطراد والتنويع

والخـــروج عـــن موضـــوعها ودائـــرة بحثها، ذلك أن أكثر العلماء كانوا مـــن المتصـــفين بالمشاركة بين أكثر من علم والمولعين بتنوع الاهتمامات ، فكثيرا ما كان يسأل أحدهم عن قضية فإذا أجاب ظن السائل أن الجواب من مفـــردات عـــلم مـــا مع أنه من علم آخر بسبب عدم التخليص بين العلوم وتمحيص حدود موضوعاتها .

وجـــاءت بعد الخوارزمي تلك الجمعية العلمية المجهولة التي سمت نفسها (إخـــوان الصـــفا) وأعطـــت في رسائلها قدرا كبيرا من الاهتمام بالعلوم وتنظـــيمها وتقويمها وبيان العلاقات بينها وأثر بعضها في بعض وحاجة كل منها إلى الآخر ..

وتـــتابع بعـــد هؤلاء (ابن سينا) في موسوعة (الشفاء)، والغزالي في (المـــنقذ من الضلال) و (معيار العلم) . وقد وصف في (المنقذ) رحلته العلمـــية مـــن الـــبداية إلى النهاية، وكان يمر على العلوم واحدا بعد واحد فيشخصـــه ويـــبين رأيـــه فيه عن معايشة وتجربة، وكان التتميم لجهده هذا نظـــرات ومنثورات أوردها في كتابه المشهور (إحياء علوم الدين) عندما تعـــرض لعلـــوم الدين مع المقارنة بالعلوم الأخرى اللسانية والعقلية، وأعطى نظـــرة إســـلامية أدق من جميع من سبقه، لأنه يعتبر عالما متمرسا في علوم الشـــريعة ومـــتحققا بغيرها من علوم عصره بالإضافة إلى توغله في الفلسفة والاشـــتغال بالتصوف، وهو مع هذا كله من كبار فقهاء المذهب الشافعي وذوي الـــتأثير في تحريره وتدوينه، وهذه المشاركة جعلته أهلا لمهمة التقويم الدقيق لشتى العلوم .

وأخيرا يأتي (ابن خلدون) الذي كتب المقدمة المعروفة للتاريخ، (والتي حظيـــت بالشـــهرة والتعويل عليها دون ذلك التاريخ بالرغم من أن المقدمة هدفهـــا التوطـــئة لـــه ..) فاستعرض في مقدمته العلوم التي كانت متداولة

في عصـــره، وهو عصر ازدهار علمي ورواج للموسوعات في مختلف فنون المعرفة، وكانت كتاباته خاتمة المطاف للباحثين المسلمين .

ولم يكـــتف المعنيون بهذا الجانب من المنهجية بذلك، بل حصل الإلزام والالـــتزام من كل مؤلف في علم ما بأن يصدر كتابه بالكلام عن عدد من المبادئ الكاشفة عن حقيقة العلم الذي يبحث فيه والتي يتميز بها عن غيره . وهـــذه المـــبادئ أطلقوا عليها (المبادئ العشرة) منها ثمانية مبادئ اقتبسها المســـلمون عمن قبلهم، وأضافوا مبدأين إليها، وليس هذا مقام استعراضها، وإنمـــا الغـــرض التنويه بأنها اشتملت على التعريف بالعلم المبحوث وتحديد تســـميته، وبـــيان واضـــع العلم، وموضوعه، ورتبته بين العلوم الأخرى، واســـتمداده .. وهكذا يتشخص العلم أمام الباحث وقارئ الكتاب المؤلف لبيان حقائقه، ويعرف في أي زاوية يقع من زوايا البحث العلمي .

٢٩ أوعية العلم وترتيب الكتب

بعد جهد الباحثين حول المنهجية المتصلة بتقويم العلوم انتقلوا إلى جانب آخر قريب التناول منه، فإن العلوم أمور مجردة، والمجرد لا يمكن إدراكه حتى يتجسد، وتجسد العلوم إنما هو في الكتب، فالكتب والمراجع هي أوعية العلم، بل هي خمائر المعرفة الإنسانية، التي تتناقل من عصر إلى آخر، ومن أمة إلى أمة، وهي الروابط بين هذه الأجيال حتى يبقى هذا العلم الذي علمه الله عز وجل الإنسان الأول : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾[1] . فقد قضى الله عز وجل أن توجد الأسباب المادية المحسوسة لضمان توارث هذا العلم واستمرار انتقاله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وإن جهود الباحثين المسلمين موثقة ومعترف بها في مجال العناية بالكتب، والبحث في توصيفها وتشخيصها، وفي تقويمها وبيان مترلتها، وفي تيسير طرق البحث ووسائله، وهي أيضا جهود استفاد منها العالم الغربي فائدة لا تنكر، وإذا كان هناك من ينكر استفادة الشعوب الغربية من المسلمين في بعض المجالات فإن هذا المجال يكاد يكون سبقهم وريادتهم وتأصيلهم موضع اعتراف وتنويه، بدءا من (كتاب الفهرست) لابن النديم وهو الكتاب الذي وضعه هذا العالم الوراق[2] ، وكان هذا العالم يعمل

(١) سورة البقرة / ٣١ .

(٢) كلمة (الوراق) هنا يقصد بها الكتبي، فإن سوق الكتب كانت تسمى (سوق الوراقين) اشتقاقا من كلمة الورق .

في مجـــال الكتـــب ولكنه يعمل ويعلم،ولذلك أراد أن يثبت خبرته ورصيد معرفـــته فكتب هذا الكتاب، ووسع نطاق بحثه فلم يقتصر على نتاج المعرفة الإسلامية، بل تناول كثيرا من الكتب المترجمة .

ومـــن المســـلم به أن المسلمين كانوا خير من قدر العلم حق قدره فقد أخـــذوا المعرفة القديمة وترجموها وهذبوها وعنوا بها وأصبحت هذه الكتب مـــتداولة بيـــنهم وجزءا لا ينفصل عن تراثهم العلمي بعد أن كانت غريبة عـــنهم، ذلك أنهم حينما ترجموا هذه الكتب استأصلوا منها ما وجدوه من قبيل الخرافات والأساطير، وما أكثرها لدى اليونان! واستلوا من هذه الكتب كل ما كان من قبيل انعكاس التفكير في الإلهيات كما سبقت الإشارة إليه، ولمـــا أصـــبحت هـــذه الكتب المترجمة مألوفة بينهم قام ابن النديم بتضمين (الفهرســـت) العـــربي والمعرَّب من المراجع والكتب على حد سواء، مع توصيف دقيق ينوه بقيمتها، ويصحح نسبتها، ويوضح مضمونها، وكل هذا يرشد الباعث إلى مصادر المعرفة .

ثم جاء بعد (ابن النديم) عدد من الباحثين المسلمين وطرقوا هذا المجال وكـــان لهم أيضا دور في التنظيم والتركيز إلى أن ظهر كتاب لطاش كبري زاده وهـــو أحـــد العلماء بين القرن الثامن والقرن التاسع سماه (مفتاح دار السعادة ومصباح السيادة)[1] . وقسم هذا الكتاب على سبع دوحات كأنه يشـــبه هذا بمظلة شجرة ذات ظل وارف فيريد من الباحث أن يستظل بهذه الدوحـــات، ولذا قسم العلوم وجاء بكتب هذه العلوم لكي يكون الباحث أمـــام دراســـات مشخصـــة في العلوم يطلع على ما ظهرت فيها من كتب ومؤلفات باعتبارها الوسيلة المباشرة للبحث .

(١) يقصد بهذه التسمية المعرفة لأنها هي التي تسعد الإنسان في حياته وهي التي تجعله سيدا بين بني قومه .

وجاء بعدئذٍ العالم التركي المعروف حاجي خليفة فكتب كتابه (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون)[1] . هذا الكتاب استعرض ما أحاط به علمه من كتب في شتى أنواع العلوم فبين مؤلفيها وعصورهم ، وبين موضوعات هذه الكتب، ونظرته التقويمية في هذه الكتب ثم ما ارتبطت به هذه الكتب من شروح وتعليقات ومحتويات هذه الكتب .

والطريف في الأمر أن هذا العالم كان إلى جانبه الثروة العلمية التي استقطبتها عاصمة الخلافة الإسلامية استنبول فكان يباشر هذه الكتب في مكتباتها ويتكلم عنها عن معرفة وخبرة ليس عن نقل واقتباس، ومن هنا نجد أن هذا الكتاب أصبح عليه المعول بين الباحثين من مسلمين وغيرهم فترجم هذا الكتاب وخدم واعتبر نواة لكل ما قام عليه علم (الببليوغرافيا) وهو علم تقويم الكتب وتوصيفها .

إن الغرض من الكلام عن هذا الجانب في منهجية البحث العلمي هو بيان أن هذا الجانب مهم جدا لكل باحث علمي، فإنه لا يجوز له أن يقتصر على أقرب كتاب يقع تحت يده وأيسر مرجع يصل إليه ويبني عليه بحثه، فإن البيوت تؤتى من أبوابها، وإن الكتب تتفاضل كما يتفاضل الناس، وتتفاوت كما تتفاوت العلوم نفسها، ولذلك عليه أن يختار المراجع الأصيلة وأن يرى تلك السوابق التأليفية لأنه كثيرا ما يكون البحث السابق خيرا من البحث اللاحق إذا جاء هذا الباحث الجديد فطمس معالمه، وقد يكون البحث الجديد مغنيا ومجزيا عن سابقه. وهنا يحار الباحثون المسلمون فبعض منهم يردد المثل القائل: (ما ترك الأول للآخر شيئا) وهذه نظرة سلبية قام إلى جانبها مثل يعكس هذه المقولة فيردد هذا المثل : (كم ترك الأول للآخر)

(١) ويقصد بالفنون هنا العلوم بقطع النظر عن التسمية العصرية الدارجة .

وكان المخرج من هذا وذاك أنه تقرر عند الباحثين العلميين الإسلاميين بأنه لا يغني كتاب عن كتاب .

كذلك لا بد من مراعاة المنهجية في ترتيب الكتب، وفي الاستمداد من هذه المراجع، وفي توثيقها وإعطاء القدر الذي تستحقه بعيدا عن التأثر بمؤلف الكتاب أو بضخامة حجمه أو بعصره وزمنه أو بأقوال الآخرين فيه، فكثيرا ما حجبت كتب قيمة بنظرات يجحد فيها الناظرون جهود المؤلفين، فقد كان هناك علل تعوق مسيرة البحث العلمي وهي منافسة الأقران، وعداوة ما يجهله الإنسان، فكثيرا ما يحكم الإنسان على كتاب وهو لم ير هذا الكتاب وإنما قرأ اسم مؤلفه أو جهل مضمونه أو لأن مؤلفه كان حديث السن أو متأخر الزمن، ولذلك فإن المنهجية الصحيحة لدى الباحثين المسلمين أنهم لا يقفون خلف دفة الكتاب وإنما يفتحون هذه الكتب ويعيشون بين سطورها ثم يحكمون عليها ، ولذلك يقول المثل العلمي الإسلامي المعروف : (انظر إلى ما قال، ولا تنظر إلى من قال) ومن الواضح أن ما يقصد بها الكتب، لأن (ما) لمن لا يعقل، وأن (من) يقصد بها المؤلفون والباحثون، لأن (من) استخدامها للعاقل (انظر إلى ما قال، ولا تنظر إلى من قال) .

٣٠ أصول التفكير (أصول الدلالة)

بعد هاتين الجولتين في تقويم العلوم وفي ترتيب الكتب فإننا أمام جوهر الموضـــوع وهو أصول التفكير وأصول البحث بعد أن عرفنا من العلم فنونه وعرفنا أوعيته، ولكن كيف نبحث ؟ هل يبحث الإنسان كما يشاء ؟ أم أن هـــناك قواعـــد عقلية وضوابط فيها جهد قديم وفيها تركيز لضوابط المعرفة الإنســـانية لا بـــد للباحث من أن يستفيد منها، فإذا تجنبها حرم نفسه من الوصول إلى الحقيقة، وحرم بحثه من أن يحظى بعناية الآخرين فإنهم يرفضونه شـــكلا وموضوعا، لأنه مشى في خط نشاز عن مشية الإنسانية، لأن أصول الـــتفكير طـــرق تتميز بالتجريد والحياد فلا تتأثر بأي مؤثر حتى الدين، لأن الديـــن لا يتقـــيد بهـــذه النتائج التي يصل إليها البحث لأن مصدره الوحي السماوي فهو في مأمن بل إذا كان هذا الدين دينا صحيحا فإنه يرحب بهذه الأصول العقلية، لأنها لا يمكن أن تناقض ما جاءت به الشرائع السماوية .

إن أصـــول التفكير هذه ليس العلماء والباحثون المسلمون مبتكرين لها، لأنهـــا نشـــأت مع نشأة الإنسان وظهرت تحت تسميات عديدة : الفلسفة، المـــنطق، آداب البحث، أسماء أخرى كثيرة أراد بها الإنسان أن يضع الأسس الـــتي يـــتفاهم بها مع أخيه الإنسان، ليس تفاهما بالكلام وإنما بالفكر، فإذا وصلت إليه حقيقة وأراد أن ينقلها إلى من بعده أو إلى غيره نقلا أمينا لا بد أن يتقـــيد بأصـــول هذا التفكير وبالمنطقية والمنهجية التي تعرف عليها، وقد

تكـــون هـــذه المنهجـــية يجـــري عليها لمسات و تغييرات لا تمس جوهرها وحقيقتها، وإنما تحسّن عرضها وتغير المداخل والسبل إليها، فمرة تكون سبلا فكـــرية محضـــة، ومرة تكون رياضية، ومرة أخرى تكون بوسائل لا حصر لأنواعهـــا وتـــنويعها ما دامت لا تغير من جوهر الأمر شيئا، هذه الأصول معـــروف دور المســـلمين فيها، فقد أخذ المسلمون الفلسفة وأخذوا المنطق وأدخلوا فيها ما أمكنهم من تهذيب ومن تنقيح وإضافات، ومجال استعراض هذا ليس الآن وإنما أريد أن أقول إن هذه الأصول ليست أصولا عامة فقط، بـــل هناك أصول خاصة بعلم دون آخر، وهذا الذي يهمنا فإننا نريد مناهج البحث في العلوم الإسلامية :

نشأة علم أصول الفقه:

هذه الأصول على رأسها علم أصول الفقه، وعلم أصول الفقه هو منهج كـــامل متكامل لاستنباط الأحكام الشرعية التي تنظم حياة الإنسان في جميع جزئـــياتها ولا تقتصـــر على نشاط من أنشطة هذا الإنسان بل تنظم عبادته وعلاقـــته بـــربه، وتنظم علاقته بالناس في أفرادهم وفي الأسرة وفي المجتمع وفي الدولـــة وفي المجـــتمع الدولي كله، ومن هنا كان البحث الفقهي أوسع وأعمـــق ألوان البحث في العلوم الإسلامية، ولذلك بكر المسلمون في وضع أصول للبحث في الفقه .

وينســـب أول وضـــع لهذه الأصول إلى أبي يوسف صاحب أبي حنيفة في القـــرن الـــثاني من الهجرة، وهذه هي نسبة بدأ بها ابن النديم في كتاب الفهرســـت، ولكـــن أول ما ظهر من هذه الكتابات كتاب الرسالة للإمام الشافعي والإمام الشافعي أيضا في القرن الثاني في أواخره ، والسبب في عناية الباحثين المسلمين بهذا الجانب لأنه جانب خطير، فإذا بحث الإنسان في الفقه

فإنـــه يريد أن يصل إلى حكم الله عز وجل ومراد الله في تكليف عباده، فإذا أخطـــأ في بحـــثه ولم يراع الأصول السليمة فإنه يتجاوز حقوق الله ويَضل ويُضل .

ضبط الاجتهاد بأصول الفقه:

هـــناك مسمى لا بد منه لكل باحث في الفقه إذا بحثه بحثا أصيلا ، هذا المســـمى هـــو الاجـــتهاد ، والاجتهاد عبارة عن أهلية تامة ومنهجية دقيقة يتوصـــل بهـــا الإنســـان إلى استنباط الأحكام الشرعية من نصوص الشرع (القرآن والحديث) عن طريق أدلة وقواعد بعضها منصوص وبعضها مقيس ومســـتنبط، في أصـــول منضـــبطة لا يخرج بها الإنسان عما رسمته الشريعة الإسلامية في قواعد الاجتهاد نفسه .

استمداد أصول الفقه :

ثم إن علم أصول الفقه هذا يستمد من أصول التفكير العقلي ففيه كثير من حقائق المنطق، ويستمد أيضا من علوم اللسان العربي، ففيه تعويل وتأكيد عـــلى قواعـــد اللغة، لأن هذه النصوص التي يتعامل معها الإنسان نصوص عربـــية : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾[1] ، ولا يمكن أن نفهم هذه النصوص إلا بمراعاة القواعد التي عرفت لأهل هذا اللسان .

وفضـــلا عن تلك الأصول الفكرية والأصول اللسانية هناك قواعد كلية اســـتنبطها العلماء المسلمون من صنيع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبين للناس كافة دينهم بيانا عاما، أو بيانا مركزا للطائفة المتفقهة في الدين من نجباء الصحابة المهتمين بالاستنباط . قد كان النبي صلى الله عليه وسلم يتيح

(١) سورة يوسف / ٢ .

الفرصة للصحابة أن يجتهدوا وأن يستنبطوا، وكانت ظروف حياتهم ومسيراتهم في الدعوة والجهاد لفتح الآفاق لها تجعلهم أحيانا بعيدين عن موقع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن الرجوع مباشرة إليه، مما يدفعهم إلى إعمال عقولهم وفكرهم لاستنباط الأحكام، فإذا جاءوا إلى النبي عرضوا عليه ما آل إليه استنباطهم فأرشدهم إلى الطريق السليم، وهكذا نشأ في جيل الصحابة مجتهدون، وجاء من بعدهم من التابعين فسلكوا هذا المنهج في ظل فهم الصحابة ورعايتهم .

الرسالة في أصول الفقه للشافعي :

ظلت مبادئ الاستنباط تتناقل تناقلا عمليا على سبيل المعايشة والمشاهدة إلى أن كتبها الإمام الشافعي، وكتابة الإمام الشافعي ليست إنشاء ولا استحداثا، وإنما هي تثبيت لما لمسه وعرفه من مدركات الصحابة والتابعين، والسبب في تأليفها هو إجابة رغبة عبد الرحمن بن مهدي، وهو من كبار علماء الحديث حيث طلب منه أن يبين له كيف تستنبط الأحكام من كتاب الله وسنة رسوله، فأرسل الإمام الشافعي كتابا ألفه في ذلك وضع فيه القواعد الأساسية من أصول الفقه . ومن هنا جاءت تسميته (الرسالة).

أصول الفقه مرجع لعلوم أخرى :

إن أصول الفقه تعتبر ميزانا للبحث في الشريعة وفي استخلاص أحكام الله عز وجل ولكنها في الحقيقة ليست أصولا للفقه وحده بل هي أصول لكل العلوم التي يراد بها أن تبين حقوق الإنسان تجاه الإنسان، ولذلك نجد أن ما يسمى أصول القانون أو مبادئ الحقوق بينها وبين أصول الفقه وشائج كثيرة على عوز وفقر نلمسه في تلك الأصول القانونية، مع فروق أخرى

منها أن النصوص التي تقصد في القانون هي نصوص طبعية ليس فيها الإعجاز وليس فيها القداسة التي لنصوص التشريع الإلهية .

ثم أن العلماء المسلمين استمدوا من أصول الفقه لبقية العلوم الإسلامية فوضعوا أصولا للتفسير وكتبت في هذا مقدمات كثيرة، بل إن أكثر المفسرين يستفتحون كتبهم المطلوبة بالتفسير باستعراض منهج لتفسير كتاب الله وقواعد البحث في تأويل مراد الله عز وجل من كلامه .

إضـــافة إلى أصول الدلالة نجد أصولا للحديث، وأصول الحديث هذه أخف عمقا من أصول الفقه لأن أصول الفقه تتعلق بدلالة النص، أما أصول الحديث فإنها تتعلق بنقل النص : كيف ينقل هذا النص، وكيف تروى هذه المقولات التي قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن كفي الناس بشأن كـــتاب الله إذ نقـــل بـــين دفتين نقلا متواترا في الصدور والسطور وكتب في عهـــد مبكر وجمعت صحفه التي كانت على مشهد ومسمع ومرأى من رسول الله، فبقيت الحاجة قائمة لنقل الحديث والسنة .

نشأة التخصص عن طريق علم الحديث :

ومـــن هـــنا نشـــأ التخصص وهو أول ما نشأ من تخصص في العلوم الإســـلامية لخدمـــة الحديـــث، فقد تمّ وضع مناهج لرواية السنة بعدما كثر أصـــحاب الأهواء وأصحاب الفرق والناقمون على ظهور الإسلام ونشطوا في وضـــع وتركيب المقولات حتى يشوشوا أفكار المسلمين ويحدثوا إرباكا في نقـــل المعلومـــات الإسلامية ، فنشط المحدثون أي نشاط ووضعوا قواعد لمنهجـــية البحـــث في الحديث بحيث لا يأخذون كل ما يروى وإنما ينظرون في الرواة .

علم رجال الحديث :

والـــنظر في الـــرواة اســـتدعى كتابة سجلات للتاريخ الخلقي والتقويم والتزكـــية مـــع وضع أصول للجرح والتعديل، فنشأ علم يسمى علم رجال الحديـــث أو رواة الحديـــث، وهذا العلم عبارة عن أرشيف شامل لكل من خاض هذا المجال سواء من كان من أهله أو من المتطفلين عليه، فيستعرضون أهلية هذا الإنسان وضبطه للمرويات وعدالته فيما ينقل من الأخبار .

الجوانب العقلية في أصول الحديث :

والجدير بالذكر أن علماء الحديث نسقوا بينهم وبين علماء أصول الفقه، وقـــالوا إن هـــناك أمورا من المدركات العقلية ليست من اختصاص علماء الحديـــث فلا تطبق فيها أصول الرواية ومقاييســـها، فمن جاء إلينا وقال : إن الواحـــد نصف الاثنين لا تقـــول له : من أين نقلت هذه الحقيقة ؟ ومن الـــذي روى لك هذه المقولة ؟ لأن هذا أمر مدرك عقلا فنحن نحكم عقولنا في هـــذا الأمـــر ونســـتريح مـــن البحث في النقلة والرواة، ولكن إذا جاء إنسان وقال : إن فلانا ولد له شخص نقول له : ممن سمعت هذا ثم ننقب عن الوســـائط واحدا بعد واحد فنبحث عن عدالة هؤلاء الرواة وضبطهم وعدم خروجهم عن مألوف ما ينقل عنهم وعمن وافقهم من رواة آخرين .

أصول الحديث مرجع لعلوم أخرى :

إن علم أصول الحديث هذا يعتبر جوهرة نفيسة في تاج المعرفة الإسلامية فهـــو أول ما ظهر من وجوه التخصص، وهو الذي ضبط هذه المرويات، و لم يقتصـــر الباحـــثون المسلمون على استخدامه في كلام النبي عليه الصلاة

والســـلام وإنمـــا وسعوا نطاقه فدخل في رواية الشعر ودخل في رواية اللغة فصـــانوا بهـــا أصـــول اللغة ، لأن اللغة تستمد من كلام العرب الفصحاء ولـــو ترك الأمر على عواهنه لجاء المدعون بكلام يسوغون ما وقعوا به من زلات وأخطـــاء ويقولوا: قالت العرب كذا، واستعملت القبيلة الفلانية كذا فيطلب إليهم أن يسندوا هذه المرويات .

٣٢ علم آداب البحث[١]

لحاجة البحث في المنقولات وجد هذا العلم ، وكلمة آداب هنا لا يقصد بها الأخلاق والفضائل فقط وإنما يقصد بها الضوابط والقواعد التي لا بد أن يسلكها الإنسان في بحثه، سواء كان هذا البحث شفويا عن طريق المناظرة، أو مكتوبا عن طريق التأليف، أو شخصيا عن طريق التعلم والتعليم، فكل هذه الجوانب أخضعها الباحثون المسلمون إلى طرق لا بد من مراعاتها .

وعلم آداب البحث هذا ليس من النتاج الخالص للمسلمين وإنما هو مما أخذوه من ضالة الحكمة فعنوا به وجوّدوه حتى أصبح علما مهما تشتد الحاجة إليه لكل باحث، فماذا يقصد من آداب البحث ؟

شمولية آداب البحث وعمدته :

إن علم آداب البحث يعود القهقرى فيتناول جميع ما سبقت الإشارة إليه فقد أشرت إلى تقويم العلوم، وترتيب الكتب (أوعية العلم) وأصول التفكير وأصول الثبوت، فعلم آداب البحث ينتظم كل هذه الأصول ويعنى بوضع الأمور العامة التي تشملها . وأهم هذه الأمور ثلاثة جوانب يعنى بها علم آداب البحث وهي :

---

(١) من الغريب أن هذا العلم – على الرغم من كثرة الكتب فيه – اختفى تماما بعد أن كان أحد العلوم التي تدرس في الجامع الأزهر وبسبب تدريسه وضعت فيه كثير من المؤلفات المعاصرة .

- (التعريفات) وما يتعلق بها ، وهي (المصطلحات) .

- (التقسيمات) .

- (الحكم) على التصورات، وهو النتيجة من التعريف والتقسيم .

وقد اخترت هذه الجوانب لأنها سهلة التصوير، لأننا لا نريد أن نخوض في غمار العلم وإنما نريد أن نمر به مرور الكرام .

٣٣ التعريفات

أول هـذه الجوانـب : التعريفات : بمعنى بيان ماهية الشيء، فإن أي فكرة من الأفكار يريد الإنسان أن يعرضها أو يفهمها للآخرين لا يسوغ له أن يدخل في تفصيلات هذه الفكرة قبل أن يبين تعريفها بأن ينقلها من دائرة المجهول إلى دائرة المعلوم، فيضع البيانات الكاشفة التي تصف هذه الحقيقة وتبعدها عن الحقائق التي قد تشتبه بها .

ومن هنا بينوا أن هذه التعريفات أو هذه التعاريف لا بد أن تكون جامعة مانعة، ومعنى " جامعة " أنها تجمع أفرادها وجزئياتها فإذا أوضحنا أمرا من الأمور وعرفناه يجب أن تنضوي تحت التعريف كل الأمثلة (الأفراد) التي تنتظم تحت مظلة ماهية الشيء المعرف. وأما كلمة " مانعة " فإن هذا التعريف يجب أن يخرج ويبعد ويحترز به عن جميع أضداد هذه الفكرة، فالتعريف يجب أن يكون جامعا لأفراده مانعا لأضداده، بهذا يستطيع الإنسان أن يدرك ماهية الشيء، ولذلك يسمونه التعريف، ويسمونه الحد، لأنه يحدد الحقيقة المراد دراستها ويسمونه القول الشارح للماهية، أي ما هو هذا الشيء ؟

وهنا تبدو صناعة فيها مهارة وفيها دقة للباحثين المسلمين في شتى أنواع العلوم، فإنهم كلما مروا بحقيقة من الحقائق مهما كانت صغيرة أو كبيرة

يبدؤون بتعريفها لأن هذا يجعلك أمام هذه الحقيقة شاخصة أمامك، ثم بعدئذٍ تتناول تفصيلات هذه الحقيقة وتوابعها وما يتصل بها من أمور .

استخدام المصطلحات العلمية :

إن التعريفات التي وضعت لها كتب معروفة قد نشأ عنها رصيد علمي آخر يعنى به العصر الحاضر أيما عناية، وهو المصطلحات .

والمصطلحات بمعنى الكلمات المركزة التي تداولها أهل كل علم من العلوم واستقر بها وارتبط بها معنى خاص، فلا يعدل أهل هذا العلم عن استخدام هذه الكلمة، لأن تركهم لاستخدام هذه الكلمة يحوجهم إلى بيانات كثيرة مشتتة .

وفن المصطلحات هذا لا يستغني عنه أي علم من العلوم، ولكل علم مصطلحاته، بمعنى الكلمات الفنية المركزة التي لا يستطيع الإنسان أن يغير حرفا منها فإنك إذا غيرت حرفا من حروف المصطلح قد ينتقل إلى مصطلح آخر .

وهذا المصطلح يستمد مفهومه مما تعارف عليه أهل العلم، ولا يستمد - بالضرورة - مفهومه من الألفاظ ولا من اللغة، وإنما من التواطؤ والتفاهم بين أهل الاختصاص، فإذا كانت الكلمة لها مصطلح ومدلول خاص عند أهل الطب فإنها إذا انتقلت بذاتها إلى أهل الفلسفة أو إلى أهل الفقه يكون لها مدلول آخر، ولا يطالب أهل علم ما الآخرين بحق الابتكار ويقولون إن هذه الكلمة نحن الذين اصطلحنا وتفاهمنا على مدلولها فدعوها وانتقلوا إلى غيرها، لأن لكل أهل علم أن يصطلحوا على ما يشاؤون، ومن هنا نشأت قاعدة علمية ومثل علمي مأثور - وللعلم أمثاله كما أن للناس أمثالهم التي

تشيع فيما بينهم وكما أن للعرب أمثالهم المعروفة - نشأ مثل علمي يقول : " لا مشاحة في الاصطلاح " وكلمة "مشاحة " من الشح والبخل والتنازع، ومعنى " لا مشاحة في الاصطلاح "، أي لكل إنسان أن يصطلح ما يشاء، وله أن يأخذ نفس اللفظ الذي أخذه غيره ، فيصطلح ويتفاهم على مدلول له، ولكن شريطة أن يبين ما يصطلح عليه، وأن يشير إلى هذا المفهوم الذي يريد أن يستدعيه بمجرد النطق بهذا المصطلح .

فالتعريفات والمصطلحات ركن أساسي في البحث، ولذلك لا يجوز للإنسان أن يتوغل في بحوثه قبل أن يمر بهذين العنصرين من عناصر منهجية البحث، فأي حقيقة يريد أن يبينها لا بد من أن يقدم تعريفا وقولا شارحا لماهيتها ولا بد له من أن يراعي الألفاظ الفنية التي اصطلح عليها غيره، ولذلك قد يضجر الإنسان حينما يجد شخصا يلف ويدور حول فكرة ويبين عنها الكثير ولا يهتدي إلى اللفظ الفني الذي يعبر عنه، فيقول الإنسان : هلا قال كلمة كذا فإن هذه الحقيقة التي يعرضها هي التي بحث عنها العلماء وركزوا لها هذه الكلمة المختصرة من خلال المصطلح، الذي تعارفوا عليه .

٣٤ التقسيمات

بعد التعريف ينتقل الباحثون الإسلاميون إلى عنصر آخر شديد الأهمية وهو التقسيم، فإن الأمور ليست جملة واحدة صلبة، وإنما لكل فكرة جزئياتها، ولكل موضوع أجزاؤه، ولذلك لا بد من التقسيم لتمييز العناصر التي يتفرع إليها الموضوع والتي تتسلسل بها الفكرة .

والتقسيم له قواعده وله أصوله، فليس كل تجزئة للفكرة مقبولا، فقد يقع الإنسان في خطأ فادح حينما يأتي إلى حقيقة واحدة، فيعرضها على أنها قسمان ولا يكون بين القسمين إلا خلاف لفظي والحقيقة واحدة ، ومن هنا وضع الباحثون قواعد للتقسيم والتجزئة للأفكار .

وخلاصة هذه القواعد هي أنه يجب أن يكون للتقسيم تأثير في النتيجة، وأن يكون متباينا، أي أن كل قسم مباين للقسم الآخر ، معاير له ، ولا يجوز أن تأتي إلى حقيقة وتعدد العبارات فيها وتقول هذه أقسام، هنا يقف المعنيون بمنهج البحث العلمي ويقولون إن هذا قسيم وليس قسما .

والفرق بين الكلمتين مهم :

فالقسم هو الذي ينضوي تحت فكرة عليا .

أما القسيم فهو النظير الذي يكون على قدم المساواة بين فكرة وأخرى.

وبعـــبارة أخرى : القسم له تسلسل عمودي وأما القسيم فهو ذو تناظر أفقي ، وإذا خلط إنسان بين القسم والقسيم أخطأ في نتائج بحثه .

ولا أريـــد أن أتوغـــل أكـــثر من هذا فإني أريد أن أنوه بهذه المنهجية للباحـــثين المســـلمين لمراعاة بحوثهم بأن تكون سليمة في تسلسلها وعرضها وفي انتمائها إلى الفكرة العليا .

٣٥ الحكم على التصورات

إن كـــل تقسيم لا يترتب عليه اختلاف في الحكم فهو لغو، أي زائف ومضـــيعة للوقت، ووقت الباحث نفيس فبدلا من أن يضيعه في هذا التقسيم الصوري اللفظي يجب أن يستنفده في معرفة النتائج والأحكام، فليس التقسيم ضـــروريا دائمـــا، قد تكون الحقيقة واحدة، فلينتقل من التعريف إلى الحكم وليتخطى مرحلة التصور الجزئي والتشقيقي لها .

وعلـــيه، فإن النتيجة الأخيرة هي الحكم على الشيء، إذ بعد أن عرف الباحـــث الفكـــرة وقسمها لا بد أن يأتي بنتائج تلك الفكرة التي يريد أن يصفها، فإذا وصفها بحقيقة من الحقيقة بأنها صحيحة أو غير صحيحة أو أنها يترتب عليها أثر معين، يجب أن يكون هذا الحكم دقيقا وأن يكون مبنيا على استدلال صحيح .

وهـــنا نعود أدراجنا إلى أصول التفكير وأصول الاستدلال، منها أصول عقلية ومنها أصول خاصة بعلم من العلوم، ولا بد من مراعاة كلا الأمرين، فإن كون العلم خاصا ومتداولا بين أهله لا يعفيهم من مراعاة أصول التفكير العـــامة التي لا تحمل العقل فـــوق طاقته وتأتي له بأمـــور توصف بأنها محالة أو مستحيلة أو فيها زلل فكري .

ولذلـــك يقولون إن علم المنطق مهمته أن يعصم الفكر من الزلل، وأن يبعد الإنسان عن حيل السفسطة وعن الاستخفاف بالعقل عن طريق التمويه

والتدلـــيس وإدخـــال الشبه التي لا حقيقة لها، وهذه كلها أمور هامة جدا للباحث، فالبحث ليس جهدا عضليا، وليس وقتا يصرف في القراءة والكتابة فقـــط ، وإنمـــا بـــين القراءة والكتابة حلقة التفكير، يقوّم ما يقرأ، ويحاكم مـــا يقرأ، ويمحص ما يريد أن يكتبه ويقدمه للناس، فإن كلام الإنسان قطعة مـــن عقله فلينظر كيف يصور عقله للناس، إذا أعطاهم حقيقة مسلمة عنده فلـــيقل إنهـــا مسلمة وإذا كانت لديه شبهة، وحاك في صدره أمرها، وكان عـــنده حرج مما يقول فليقل لهم ذلك ولينقل لهم هذه المعرفة بنفس الأمانة العلمـــية الـــتي ينبغي للإنسان أن يتحلى بها، ولذلك نجد أن الغموض الذي يـــلحظه الإنســـان في بحث باحث إنما ينشأ عن غموض الفكرة عنده، فلو كانت الفكرة صافية عنده، وكانت ممحصة لخرجت للإنسان صافية، فليكن الإنسان أمينا في بحثه فليس مطالبا بأن يبقر بطن الحقيقة وإنما هو مطالب أن يعطي كل ما عنده وأن يبرز كل ما جال في خاطره بشتى ملابساته .

٣٦ تدوين العلم والعناية بالمخطوطات ونشرها

يهمنا الآن الإشارة إلى دور الباحثين المسلمين في مجال تدوين العلم، والعناية بمخطوطات الكتب المؤلفة في شتى العلوم، ثم مراعاة أصول الإخراج والعرض الفني للكتب. فما هو هذا الدور ؟

للباحثين المسلمين دور كبير في التوثيق وفي عرض المعلومات وفي إخراج البحوث، وهو دور أصيل لا تزال تشهد به خزائن المخطوطات في العالم كله، وفي العالم الغربي قبل العالم الإسلامي، لأن ما آل إلى تلك الرقعة من العالم أكثر مما يحرزه المسلمون ، والمخطوطات العربية والإسلامية - وهذه أمانة وشهادة يجب أداؤها - حظيت بما تستحقه عند هؤلاء المستضيفين لها، أكثر مما حظيت عند أصحابها وأبنائها، فإنها قد عني بها، وحفظت، وبذلت شتى قواعد الصيانة والرعاية في حفظها كما يجب.

هذه المخطوطات هي المظهر التراثي لعرض البحوث، فقد كان هناك منهجية في تدوين الكتب وفي كتابة العلم، فلا يأخذ الإنسان ورقة وقلما ويكتب كما يشاء، بل هناك منهج لا بد من اتباعه، وهذا المنهج قابل للتطوير والتحسين .

وأول من عني بهذا المنهج علماء الحديث، أي علماء أصول الحديث ومصطلح الحديث، لأنهم أسبق من تعرض لمهمة التدوين، بعد أن كانت العلوم تنقل شفاها.

وعـــلم الحديـــث قد بكر المسلمون إلى تدوينه، لأنه مصدر من مصادر التشريع، فهو المصدر الثاني للتشريع، ولذا فإن الخليفة عمر بن عبد العزيز، أصدر مرسوما - إذا صحت التسمية - إلى جميع الولاة في البلاد الإسلامية في نهاية القرن الأول من الهجرة يقول لهم: اجمعوا ما تناثر عندكم من حديث رســـول الله صلى الله عليه وسلم - هذا معنى الكلام - فقام هؤلاء وبدؤوا يدونون وبدأت فكرة التدوين في الحديث قبل غيره من العلوم .

وبعـــد أن أرسى علماء الحديث أصول نقل الحديث والتثبت من صحته انتقلوا إلى تدوينه، فاشتملت جميع كتب مصطلح الحديث على أبواب مهمة في تقيـــيد الحديث وكتابته وتدوينه : كيف يكتبه ؟ ما الحجم من الصفحة الذي يستخدمه للكتابة؟ وما الحجم الذي يتركه للتعليقات والهوامش لإضافة مـــا سقط من الكاتب وعلامات لمنتهى الكلام ومبتدئه، وأمارات للعناوين والكـــلمات البارزة بلون مغاير، باللون الأحمر غالبا، ومقاس الصفحة وعدد الأسطر في الصفحة، ومن الملحوظ أن الإنسان إذا كتب مقالا قد يكتب في صـــفحة عشرين سطرا وفي أخرى أقل أو أكثر، أما الكاتب في المخطوطات فإنـــه يلتزم مقاسا وعددا للأسطر لا يحيد عنه، ويلتزم أن يكون إطار الكتابة في شكل واحد، لأن هذا يورث الناظر في الكتاب سكينة وراحة، ولا يشعر بنشاز حين يقع نظره على المكتوب .

أصول الإخراج والعرض الفني للعلم:

ولا بد بعد هذا من الكلام عن شكليات البحث، فبعد أن فكر الإنسان وراعـــى أصـــول التفكير ، وراعى أصول التعلم ، وأخذ من الكتب ، أراد أن يعرض بحثه للناس ، كيف يعرضه، هل يقدمه متناثرا دون أن يكون هناك

نظام يجمع أطرافه؟ أم أن عليه أن يقدم هذا البحث في صورة شيقة توفر على الإنسان مهمة التصور والمقارنة واستحضار الذهن .

فالإنسان إذا أعطيت إليه معلومات متناثرة، فإنه يكلف جهدين :

الجهد الأول : أن ينظم هذه المعلومات، ولذلك كثيرا ما يسمع الإنسان قصة، ثم يقول أول القصة كذا وهذه الفكرة قبل هذه .

الجهد الثاني : أن يفهمها، فلماذا أيها الباحث تحمل من ينظر في بحثك عبئا مكررا ؟ لو أنك أيها الباحث بذلت شطرا من وقتك وأضفت إلى جهدك في البحث جهدا فنيا، فعرضت هذه الحقائق بصورة سهلة ميسورة، فإنك تتعب نفسك قليلا وتريح الناس كلهم من تكرار هذا الجهد .

ومن هنا نشأت قواعد لعرض البحوث، وإخراجها للناس، وهذه القواعد وإن كان قد يظن الإنسان أنها قد رافقت عصر الطباعة وعصر النشر والإعلان فإن هذا ليس صحيحا لأنها قديمة قدم الفكر، ولكنها كانت في كل عصر بحسبه .

هذا، وقد تطورت هذه القواعد والأصول من خلال الكتابة في علم مصطلح الحديث بالذات، بالرغم من أن الإنسان يتصور أن الحقل الطبيعي لهذه المنهجية في عرض البحوث هو علم الإملاء وعلم الكتابة، ولكن لم يحصل هذا لأن علم الإملاء اقتصر على فكرة تصوير الكلمة، وترتيب حروفها ومواقع هذه الحروف من حيث الوصل والفصل، ومن حيث الحروف القلقة الشكل كالهمزة . أما كيفية عرض هذا المكتوب فإنه أمر ادخر لعلم مصطلح الحديث بسبب التبكير في خدمة السنة .

وهـــذه الأصول عني بها المستشرقون عناية كاملة، فطبقوها فيما نشروه مـــن كتـــب عربـــية، واقتبسوا منها فيما أخذوه للعناية بنتاج ثقافتهم أيضا وتبلورت هذه في علامات الترقيم وفي أصول العرض الفني .

ومـمـــا يـــدل على أن هذه الأصول والقواعد تمت بجذورها إلى ثقافتنا الإســـلامية هـــو أنهـــا لا تـــزال تحتفظ بكثير من الطرق والاصطلاحات قـــد لا يدرك الإنسان سرها أو الحكمة منها ولا يتسع المقام لشرحها، فإذا ذهب إلى علم مصطلح الحديث يجد السر في هذه الأمور .

وفي الختام، إنني بهذه الجولة المتنوعة حاولت أن ألقي ضوءا على منهجية البحـــث العـــلمي الإسلامي، وليس معنى هذا أن نقتصر على تمجيد هؤلاء الســـابقين الذيـــن قدموا ما عندهم وذلك لأن هؤلاء الباحثين كما أشرت في البداية استفادوا من جهود من قبلهم وطوروا هذه الجهود، وتركوا الباب مفتوحا للتحرير والتنقيح والإضافة، لأن العلم لا نهاية له : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (١) ، ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (٢) ، وقد أمرنا الله عز وجل أن نقول من خلال أمره لرسوله: ﴿ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (٣) .

★ ★ ★

(١) سورة يوسف / ٧٦ .
(٢) سورة الإسراء / ٨٥ .
(٣) سورة طه / ١١٤ .